

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأَوند



شهادة على العصر
حب مراهق في أواسط



شهادة على العصر

حب مراهق في أواسط الثلاثينات

.....

نحن الآن في بيروت التي جعل منها الانتداب الفرنسي عاصمة لدولة لبنان الكبير والتي تقرر إنشاؤها عام 1920م بمرسوم صادر عن المندوب السامي الفرنسي في ذلك الوقت "الجنرال غورو" .. وقد وضع لهذه الدولة دستور صدر أيضاً بمرسوم من قبل المندوبية الفرنسية عام 1926م فأصبحت هذه الدولة هي الجمهورية اللبنانية. فإذا جاء عقد الثلاثينات كان العالم كله وبما فيه الجمهورية اللبنانية بالطبع قد صلي نار أزمة اقتصادية خانقة انهارت بسببها المئات والألوف من المؤسسات الاقتصادية في كل مكان من العالم ولم تكن مؤسسات لبنان استثناء من هذه القاعدة بل كان وضعها أسوأ كثيراً من وضع دول أجنبية أخرى. بيروت العاصمة كانت مدينة صغيرة، البيروتيون في كثرهم الساحقة كانوا ينتمون إلى الطائفة الإسلامية السنية وعندما استقر الحكم الفرنسي بصورة نهائية في بدايات العشرينات لم يكن في العاصمة غير حي صغير واحد يسكنه مسيحيون أورثوذكس هو حي المزرعة. لكنّ التوازن الطائفي الذي وجدته الفرنسيون المحتلون لم يلبث حتى أخذ يتخلخل بسبب الهجرة الواسعة من جبل لبنان الماروني إلى العاصمة، المهم أنّ المسلمين في بداية الثلاثينات كانوا لا يزالون يشعرون بالغرابة عن الحكام الجدد ممن قبلوا التعاون مع الحكومة الفرنسية المنتدبة. ولم يكن لهذه الغربة غير ملجأ واحد هو مضاعفة التمسك بالعقيدة الإسلامية والقيم والتقاليد التي كانت تتمثل فيها. وكان الناس في تلك الفترة يجدون في العالم الديني نموذجاً وحيداً للزعامة والقيادة إليه يعودون كلما نزلت بهم نازلة أو رغبوا في معرفة شؤونهم الدينية والدينية. وطبيعي أنّ السعي إلى مصادر المعرفة الدينية كان هو الظاهرة التي تلفت النظر رغم تجاهل السياسة الفرنسية لهذا الاتجاه وحرصها على عدم تشجيعه بالطبع.

وفي الوقت نفسه كان جيل جديد ينشأ متأثراً بالتيارات الوافدة من الخارج بالإضافة إلى أقلية من الكبار كانت بدورها حريصة على استيعاب الثقافات الوافدة والأقلية الإسلامية هذه لم تكن تجد ضيقاً في التعامل مع العهد الفرنسي ومع هذا بقي البيروتيون الصامتون الراضون لهذا العهد يمثلون أكثر البيروتيين المسلمين. الأوضاع الاقتصادية كانت سيئة والناس في الثلاثينات لم يكونوا قد تحرروا من بقايا الآثار السلبية للأزمة الاقتصادية العالمية التي انفجرت في بداية الثلاثينات. في ذلك الوقت فكر أحد كبار العلماء الدينيين بإنشاء معهد ديني يتولى أعداد فتيان صغار وتزويدهم بالمعارف الدينية وقد نجح في محاولته بمساعدة خاصة من حكومة الملك فاروق في مصر.

بطل قصتنا صبي أنهى عامه الرابع عشر وبدأ نحو عامه الخامس عشر. كان ينتمي إلى أسرة فقيرة جداً، والده تاجر سابق أفلس تجارته قبل ذلك بسنوات قليلة شأنها شأن تجارات أخرى كثيرة. لكن الفرق بين رب هذه الأسرة وغيره من أرباب الأسر البيروتية أنّ إفلاسه حطم في نفسه الأمل وحرمه من كل عزم على استئناف نشاطه. فكان يهبط في سلم الحياة العملية درجة درجة حتى جاء يوم أصبح فيه يعمل أجيراً عند غيره من صغار التجار وكان من نتائج هذا الهبوط المستمر أنّه أرغم على إخلاء منزله الحجري في كرم يدعى (كرم الزعني) من حي المصيطبة والانتقال إلى بيت خشبي صغير اشترك مع النجار في بنائه من أخشاب صناديق كبيرة كانت تباع في المرفأ بثمان بخس بعد أن يفرغها التجار من السلع المستوردة من الخارج. وارتفعت القواعد من هذا البيت ثم غطي السقف بالقرميد الأحمر. كان البيت بعد تمامه أقرب إلى الكوخ الكبير وقد انتقلت الأسرة إليه رغم العجز عن بناء المطبخ وعن توفير المنافع الصحية له. الأسرة حتى ذلك الوقت كانت مؤلفة بالإضافة إلى سيدها من الزوجة وثلاثة صبيان وبنيتين ومن بين الصبيان فؤاد بطل قصة اليوم.

تسامع الناس في ذلك الوقت بالعزم على تأسيس المعهد الديني فأقبل من أقبل منهم على تسجيل من يصلح من أبنائهم للدراسة فيه.. وكان والد فؤاد من المتحمسين لإلحاق واحد من أبنائه به وشاءت الظروف أن يقع اختيار الوالد على الفتى الصغير فؤاد.

وعندما فوَّتح فؤاد بهذا الأمر رفض الانتساب إلى المعهد وأصر على رفضه لكن مثله في ذلك الوقت لم يكن يسمح له بالمعارضة فكان نصيبه الضرب المبرح الذي أرغمه على الموافقة.

والواقع أنّ إصرار رب الأسرة على إلحاق صبيه بهذا المعهد لم يكن متأثراً بالحافز الديني وحسب. فقد كان الرجل من الفقر وضيق ذات اليد بحيث أرغم صبيه على القبول رغبة منه في التخلص من أعباء إعاشته فقد كان من امتيازات الدراسة في ذلك المعهد تقديم الطعام والكساء والمأوى لطلابه مجاناً.

والجدير بالذكر أنّ المراهقة سن حرجة جداً حافلة بالأطماع والتناقضات والأحلام التي تتولد في نفس المراهق الصغير. ولم يكن فؤاد استثناء من غيره. فقد كان يفكر على طريقة لذاته ويرى أنّ طريقه هو طريق الدراسة الرسمية العلمانية. بالإضافة إلى أنّه كان يتميز ببحوية دافقة ورغبة شديدة في اللحاق بركب العصر وهي رغبة لم يكن يشاركه فيها والده بل كان يعتبرها نوعاً من التنكر للقيم الدينية المسيطرة على عقول الكبار.

ولما لم يجد فؤاد بدل من الإلتحاق بالمعهد الديني سلم أمره لله وانتظم في سلك الدراسة الدينية. وراح يغالب نفسه ويعمل على ترويضها لقبول الأمر الواقع. ومضى فيما مضى فيه زملاؤه بحفظ أجزاء من كتاب الله ويستوعب دروس الفقه والتفسير والأصول إلى جانب علوم النحو والصرف والبلاغة واستطاع عند نهاية العام الدراسي الأول أن يكون من أوائل الطلاب مع التزامه الشديد للعبادات كلها سرّاً وعلانية وتطرفه في الحفاظ على كل القيم والتقاليد ذات العلاقة بالعمامة التي توجت رأسه والجمبة التي يتلفح بها.

لم يكن أقرباء فؤاد كلهم على صورة أبيه، كما لم تكن أوضاعهم المالية والاجتماعية كأوضاعه. كان منهم الميسور نوعاً ما وكان منهم فتيان يجدون في ظروف أسرهم ما يوفر لهم فرصاً واسعة للدراسة في مدارس مدنية خاصة أو في المدرسة الرسمية الوحيدة الموجودة في منطقة (حاووز المصيطبة) وكانت تسمى (المدرسة العسكرية الثانوية) حوض الولاية اليوم.

ومما أفتق المراهق الصغير على ضرورة الانتظام الجدي في المعهد الديني أنّه كان يجد فيه كفايته من الطعام ويحس بمتعة السكن في بناء حجري كبير كما يحس بنوع من الطمأنينة على مستقبله ذلك أنّ إدارة المعهد كانت قد تعهدت بتوظيف المتخرجين منه وكفالة أرزاقهم.

لكن اقتناع فؤاد بوضعه الجديد لم يكن يخلو من فترات القلق العميق. أما رده على هذا القلق فكان مزيداً من الشدة على نفسه ومزيداً من التزمّت في سلوكه وفي عباداته. وعندما أنهى عامه الخامس عشر خطر في باله يوماً من الأيام أنّ في وسعه أن يفعل شيئاً كثيراً لتحرير بلده لبنان من التسلط الفرنسي. ووجد أنّ العمل لهذا الغرض يفرض عليه أن يعي من يستطيع تعبئتهم في ظل دعوة دينية تستهدف العودة بالناس إلى الله عز وجل ثم الكفاح المسلح ضد المحتلين الفرنسيين والمتعاونين معهم من المواطنين.

وكما هو شأن المراهق في مثل هذا الموقف قام بالدعوة بين أقرب الناس إليه من لدانه وأقرانه إلى تأسيس جمعية أطلق عليها اسم (حزب الله) تيمناً بقوله عز وجل (أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ...
وحكاية هذا الحزب حكاية أخرى لكننا أشرنا إليه إشارة عابرة لتتعرف إلى المزيد من طبيعة صبيينا الصغير. فقد اختار لهذه الجمعية غرفة معزولة في وسط كرم كبير فيه أشجار متناثرة تقوم اليوم فيه بناية ضخمة كبيرة يشغلها موظفو السفارة الأميركية عند شاطئ البحر.

كانت أحلام فؤاد أكبر من أن تستجيب لها وسائله المادية وأبعد مدى من أن يصبر على متاعبها والمسؤوليات المترتبة عليها. فكان شأنها شأن كل أحلام المراهقين تبدأ حافلة بالحرارة والحيوية ثم لا تلبث نارها أن تنطفئ والعقبات فيها أن تتراكم ولا عجب في ذلك فقد كان أفقر من أن ينفق قرشاً واحداً من حر ماله وأصغر من أن يقنع القادرين على الدفع والمساعدة.

ولذلك راح يبحث في طيات خياله عن أشكال أخرى من الأحلام كلما أوى إلى فراشه في عنبر القسم الداخلي من المعهد أو كلما خلا إلى نفسه. فإذا اختار الوقوف عند حلم من أحلامه المتجددة لم يلبث بعد قليل حتى يشعر بالعجز عن تنفيذ ما فكر في تحقيقه. والسبب واحد لا يتغير هو أنّ أحلامه كلها كانت أكبر جداً وأخطر جداً من أن يستجيب لتحدياتها بظروفه الخاصة ووسائله القليلة الفقيرة.

وكما أنّ كل حلم من أحلام صبيينا المراهق لا يلبث أن يواجه العقبات التي تحوله إلى حزمة من دخان تتناثر أجزاءها وتضيع عند أول هبة من هبات الرياح. فقد جاء على الصبي بعد وقت غير بعيد يوم أحس فيه إحساساً قوياً بعجزه عن النهوض الكامل لأي مسؤولية من المسؤوليات. وقد انعكس هذا الإحساس على سلوكه اليومي وعلى تصرفاته مع زملائه.

أصبح يشعر بالعجز الشديد عن الاشتراك في أي حوار لا مع أساتذته فقط بل مع زملائه أيضاً. ذلك لأنّ غيوماً كثيفة كانت تشيع في مواقع الوعي والخيال عنده. فإذا انقشعت هذه الغيوم لفترة قصيرة لم يجد في نفسه من العزم ما يمكنه من نقل راية إلى الخارج بصوت مرتفع.

وقد طالما تساءل بينه وبين نفسه عن السبب الحقيقي لهذا العجز الظاهر فلا يخرج بعد المحاولة طالت أو قصرت، إلا برأي واحد هو الإحساس بالعجز عن مجارة الآخرين.

وها هو اليوم بعد سنوات كثيرة يتذكر عدداً لا يكاد يحصى من المواقف العاجزة التي لم يستطع فيها أن يشارك في أي حوار جاد رغم إحساسه القوي بأنه على حق وبأنّ من سكت عن حقه أمامهم هم على باطل. وكما أنّه في عامه الخامس عشر لم يستطع أن يدرك السبب الأساسي لهذا العجز المفاجيء فيها هو اليوم بعد سنوات كثيرة جداً يجد نفسه كما كان في تلك السن المبكرة.

والجدير بالذكر أنّ هذا الإحساس الداخلي كان يسبب له المزيد من الألم كلما كشفت الوقائع والمواقف عن حقيقة عجزه أمام أساتذته وزملائه. وقد زاد فقره من حدة الألم واصطناع الظروف التي تعزله عن كل من حوله. كان إذا وضع موضع التحدي في فصل من الفصول يفاجيء الجميع بالسكوت والعودة إلى مقعده. وإذا كان موضع التحدي في ملعب المعهد وكان في وسعه التغلب على من يتحداه فجاء الجميع بالامتناع عن الاستجابة وبالتراجع عن المعركة. ذلك أنه كان دائماً يحس وكأن يداً عملاقة قوية غامضة الأبعاد شجية الشكل ترده عما عزم عليه من الحوار، رغم امتلاكه القوي لمادته الفكرية، ومن المصارعة رغم قوته الجسدية.

وفي أثناء ذلك كانت ممارسته للعبادات اليومية تزداد حرارة وتطول أمداً. كما أنّ إقباله على تلاوة كتاب الله وحفظ آيات كثيرة منه يتزايد أكثر فأكثر.

كل هذا كان يجري في نهار كل يوم وليلة وكلما مضت الأيام زاد إحساسه بالعزلة وتقطعت علاقته بالكثير من زملائه حتى لم يستبق منهم غير زميل بدين يميل بطبعه إلى الصمت ويتميز من صبينا بأنه كان ينتمي إلى أسرة غنية جداً يمارس سيدها تجارة الماشية كما يملك مساحات واسعة من الأرض قرب مدينة حماة يقوم على حرثها وزرعها وحصادها عدد من الفلاحين.

هذا الزميل البدين كان يقول له في كل مناسبة تعرض لماذا تسكت عن حقلك يا فؤاد؟ أو لماذا لم تتابع حوارك الفلاني وقد كنت صاحب الرأي الأصوب والأصح؟ إنّ سكوتك المفاجيء أمر يحيرني، إنّك إن تابعت هذا النهج في حياتك فقد الكثير من فرص النجاح.

والواقع أنّ صبينا المراهق لم يكن يكف عن مراجعة نفسه وعن التعهّد بينه وبينها بالخروج من هذا السجن الوهمي الذي حبسها فيه والمراجعة هذه كانت تجري عند الاستعداد للنوم وقد تمدد فوق سريره في عنبر الطلاب وقبيل أن يسلم نفسه لسلطانه.

وفي يوم من الأيام وقد كان يتمشى في طول ملعب المعهد وعرضه تستغرقه خيالات غامضة ولحاحات من الفكر منقوصة وإذ بأحد زملائه يدفعه دفعاً عنيفاً على غير قصد منه وقد كان يسابق زميلاً ثالثاً، مما أفقد فؤاداً توازنه

فتعثر بقدميه وسقط أرضاً ثم لم يلبث أن نهض من سقطته وقد احتقن بغضب مفاجيء وشعر بتشنج شديد يضغط على كل جوارحه يرافقه إحساس بالمهانة فانقض على زميله المسكين يضربه بكلتا يديه ويرفسه بقدميه ولولا تدخل بعض زملائه وفصلهم بينهما لقضي عليه أو على الأقل سبب له عاهة في جسده. وانتهى الخلاف بعد قليل وجرى التوفيق بينهما.. ونسى الجميع ما جرى في ذلك النهار لكن القضية لم تنته عند صبيّنا أبداً. لقد بقيت حية في نفسه لكأنها كان الضوء الأخضر الذي دفعه إلى القيام بمراجعة جديدة شاملة لتصرفاته وأفكاره وقدراته المادية والأدبية.

لقد اكتشف أنّ في وسعه أن يضرب إذا عزم على الضرب وأن ينتصر إذا رغب في الانتصار وأن يتخذ القرار الذي يرضيه إذا بدا له أن يتخذ هذا القرار وإذاً فهو قوي، وهو لا يقل عن زملائه كفاءة عقل وقوة جسد، وشجاعة في المواقف.

وجاء الليل واقتربت الساعة التاسعة التي يفرض فيها على الجميع أن يلتزموا أسرّتهم. فإذا سكن كل شيء حوله وأطفئت الأنوار وغاب شبح الشيخ العجوز الذي كان يشرف عليهم في الليل والنهار، انطلق شريط الأحداث السابقة بوضوح شديد وراح يتابع وقائعه بعين خياله، يوقفه لمزيد من التأمل ساعة يشاء أو يتركه يمضي حين لا يجد حاجة إلى إيقافه.

كان حتى تلك الليلة قادراً على استبعاد ما لا يتفق مع تزمته من الصور والوقائع. فإذا خطرت في خياله صورة فتاة جميلة من فتيات الحي لا يلبث حتى يهرب منها ويستغفر ربه لأنه يجد في جاذبيتها صورة الشيطان. فإذا أصرت صورة الفتاة على العودة إلى خياله نهض من فراشه متسللاً إلى دورات المياه فتوضأ وصلى ركعتين، ثم عاد إلى فراشه. وإذا خطر في باله أن ينتقم من زميل له عدا عليه في أثناء النهار سارع إلى خنق هذه الخاطرة، فإذا ألحّت عليه بادر إلى الوضوء وأداء ركعتين قاعداً إلى التوبة والتطهر.

لكنه في تلك الليلة لم يجد ضرورة لفعل ما تعود فعله. فقد خطرت في باله صورة فتاة بينه وبينها قرابة بعيدة. شديدة بياض الوجه شديدة سواد العينين والشعر. وقد اختلط بياض بشرتها بحمرة زاهية تبدو وكأنها سحر من السحر. فابتسم للصورة على استحياء. وكان حريصاً على استبقائها في خياله رغم إحساسه بالحرج وشعوره بالإثم، ثم اختفت الصورة حين عقبها صورة الزميل الذي دفعه في الملعب فانقض عليه يضربه بيديه ويرفسه بقدميه فلم يحاول استبعادها بل شعر بنوع من الرضاء والسعادة لأنه انتصر عليه واكتشف بهذا الانتصار مصادر القوة والشجاعة في جسده ونفسه. شعر بهذا كله رغم تدخل ضميره الديني على استحياء، هذا الضمير الذي لم تعد له قوته السابقة وهيبته العادية ثم غلبه النوم.

نهض صباح اليوم التالي وقد كان يوم الجمعة يوم العطلة الأسبوعية فأحسنّ بنشاط غير عادي. وبعد أن أدى صلاة الفجر جماعة مؤتماً بالناظر الشيخ العجوز غادر مبنى المعهد متوجّهاً إلى بيت الأسرة ثم لم يبعد غير قليل حتى وجد نفسه قريباً من بيت الفتاة ذات الوجه الجميل التي طالما استبعد صورتها حين تزوره من كل ليلة باستثناء الليلة الأخيرة. فوقف حيث هو من البيت لا يدري ما يفعل هل يلم بها ويلقي نظرة عليها أو يتابع طريقه كما جرت عادته بغية الضمير الديني أو ما كان يعتبره ضميراً آنذاك. صرخت في وجهه صرخة هادرة في صمت تطلب إليه رفض وسوسات الشيطان فمضى في سبيله، لكنه بعد خطوات قليلة غلبت عليه هذه الوسوسات فتوقف مرة أخرى. هكذا بقي بين شدّ وجذب تغريه صورة الوجه الجميل على التوجّه إليها ويشده صوت الضمير باتجاه بيت الأسرة وأخيراً غلب عليه صوت الضمير فمضى بقية النهار في حزن أسرته بين الوالدة والأخوة والأخوات.

وجاء الليل فأوى إلى فراشه وساد الصمت والظلام من حوله لكن صورة الوجه الجميل لم تفارقه. فعادت إليه بوضوح لا سابقة له وعاد معها الندم على أنه لم يلمّ بصحبتها في أثناء النهار. وراح يلوم نفسه على جنبها وترددتها، وقد عزم على زيارة صاحبة الوجه الجميل في يوم العطلة القادم. وتتابع أيام الأسبوع كلها تغزوه في الليل صورة الفتاة الجميلة التي خالطت الحمرة بياض بشرتها كما يذكره ضميره بالتزاماته السابقة ويقرّعه على تلك الحرية التي منحها لنفسه. وقد لاحظ زملاؤه وأساتذته بعض التغيير في سلوكه وتفكيره فقد أصبح أجراً على الحوار وأوضح في التفكير وأقدر على توجيه التحديات إلى كل من حوله. لم يعد يلتزم الصمت دائماً حين يفرض عليه الحوار، ولم يعد يسكت عن تحرشات زملاءه في كل وقت. كان يشعر أكثر فأكثر بحقه المشروع في أن يقول رأيه وأن يدافع عنه وأصبح يرى أنّ من حقه رد الصاع صاعين حين يظن أنّ أحدهم يتحداه. وقد كانت أيام هذا الأسبوع حافلة بالأزمات الداخلية التي تورقه وكان هو حريصاً على الخروج منها بقدر أكبر من حرية التصرف والجرأة في اتخاذ الموقف.

هاجس يقول له: تحرك يا فؤاد وتحرك فإنّ ما تطلبه لنفسك لا يتعارض مع الشريعة. فأنت مواظب على الصلاة مجتهد في دراستك وهذا حق الله عليك. لكنك في الوقت ذاته مدين لنفسك ولطالب حياتك فاستجب لها في حدود ما تسمح به الحقوق المشروعة. لكن هاجساً آخر يسكت الهاجس الأول فيذكره بما كان عليه وضعه

السليم من قبل ويحثه على رفض شهوات الدنيا ومطالبها ويؤكد له أنّ الدنيا دار ممر وأنها لا تغني عنه من الله شيئاً.

وانتهت أيام الأسبوع دون أن يتخذ صبيّنا المراهق موقفاً محدداً يخرج به من زوبعة التردد التي كانت تعصف بعقله وقلبه بل وبجسده أيضاً. فإذا جاءت عشية يوم العطلة الأسبوعية كان توتره النفسي قد بلغ أقصاه دون أن يتخذ قراراً محدداً بشأن اليوم التالي لأنه كان يريد أن يمنح نفسه فرصة زمنية أخرى تمتد حتى الصباح القادم لاتخاذ هذا القرار.

وفي تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي - الجمعة - خرج صبيّنا على عادته حتى إذا اقترب من الزقاق الذي يقوم فيه بيت صاحبة الوجه الجميل تسمّرت قدماه وقد بذل جهداً غير عادي يقيم به حاجزاً حول نفسه ويستكت به الصوت الذي كان يحثه على المضي في الطريق إلى بيت أسرته. ولأول مرة في حياته التي بدأت ربيعها السادس عشر يتحول نحو الزقاق وفي أعماقه أفكار ومشاعر ونزوات متداخلة مختلطة لكنها خاضعة في الوقت نفسه لإغراء العينين السوداوين والبشرة البيضاء التي تخالطها حمرة وردية والجسد الفتي الممشوق. ومضى في الزقاق الضيق الطويل حتى إذا اجتاز نصف المسافة إلى صاحبة الوجه الجميل راح يسائل نفسه كيف أبرر زيارتي؟ وماذا أقول لوالدة الفتاة لكنه لم يجد جواباً عن السؤالين ومع ذلك فقد تابع الخطى بطيئة باتجاه البيت يباعد بين الواحدة منها والأخرى على أمل أن يجد شيئاً يقوله وتستمر خطواته دون أن يخرج بالجوابين المطلوبين. يفعل ذلك رغم أنفه وقد نسي الدنيا من حوله. فلم يعد يرى القليل من المارة ولا الأشياء التي تحيط به، اللهم غير صاحبة الوجه الجميل التي خيل إليه أنها تبسّم له وتمد ذراعيها إليه وتعزم عليه بكل جارحة من جوارحها أن تعال.. وبسرعة هائلة تخيل نفسه يضمها بين ذراعيه ويستمتع بنعومة الجسد ويشم فيها عبق جمال عجيب يحدث في نفسه نشوة فائقة لا يستطيع لها وصفاً.

وشاءت المصادفة أن تكون النافذة المطلّة على الزقاق من نوافذ بيت الفتاة الجميلة مفتوحة. فإذا اقترب الصبي منها تلاقت عيناه مع العينين السوداوين الواسعتين وهما تطلان على الزقاق الذي يكاد يخلو من المارة. فوقف حيث وجد نفسه مكتفياً بالتحديق، ومضت ثوان قليلة لم يدر فيها ما يقول أو يفعل.. هل يتبسم؟ هل يتجاهل صاحبة العينين السوداوين؟ هل يحببها تحية الصباح؟ أم يقطب حاجبيه تجاوباً مع العمة التي يتوج بها رأسه والجبّة التي يتلفع بها؟

والواقع أنه لم يكن في حاجة إلى مثل هذه التساؤلات المربكة فإنّ ما بينه وبين الفتاة من وشائج القرى، على وهنها، كان يمنحه حق إلقاء التحية على الأقل دون أن يكون موضعاً لشبهة أو هدفاً لإتهام، إلى جانب أنه لم يقترف إثماً ولم يصدر عنه ما يغضب ربه ويثير الناس عليه.

وشاءت المصادفة السعيدة أيضاً أن تنقذه صاحبة الوجه الجميل وتخرجه من حالة الارتباك التي كانت تهز كيانه. فبادرته بالتحية وكان بينها وبينه الحوار التالي:

- كيف حالك يا فؤاد؟

- الحمد لله.

- وكيف حال والدتك وإخوتك؟

- كلهم في خير.

- هل أنت قادم إلينا؟

- الحقيقة أأأ..أني كنت عازماً على زيارة زميل لي يقيم قريباً منكم.

وتنادي صاحبة الوجه الجميل على أمها التي كانت في غرفة مجاورة.. ماما فؤاد هنا في زقاقنا. وتأتي الأم إلى النافذة لتعزم على الصبي في إلحاح أن يدخل ويتظاهر الصبي بقبول الدعوة رغم ارتباطه بميعاده المزعوم مع أحد زملائه حتى إذا اقترب من الباب قالت له الأم: زارتنا البركة يا بني.. لم هذه المقاطعة الطويلة؟ هذه أول مرة أراك فيها بهذا الزي الجميل.. ربنا أوصى بصلة الرحم.. فلماذا لا تصل رحمك؟
وسرّ الصبي لهذه المقابلة.. وأسعده أنّ كل الأوهام والمخاوف التي ملأت عليه رأسه وقلبه كانت غير ذات موضوع وأدرك أنه لم يرتكب إثماً ولا خطط لإثم حين فكر بزيارة هذا البيت.

وللعلم نذكر أنّ أسرة صاحبة الوجه الجميل كانت مؤلفة منها ومن الوالدة ومن أخوين أحدهما يعمل في التجارة وثانيهما موظف في مدرسة الطب التابعة لجامعة اليسوعيين. المبنى ملك لأفراد الأسرة وهو وسط بين المباني في تلك الفترة حيث كانت المباني في بيروت متواضعة في جملتها غير عدد قليل منها يشغلها عدد من الموسرين وهم قلة أيضاً.

قال الصبي للوالدة :

- أخشى أن تكونا مشغولتين.

- أنت الآن شغلنا وحسب.. ادخل يا فؤاد.

فإذا استقرّ به المجلس في غرفة الاستقبال لم تمض دقائق قليلة حتى أقبلت صاحبة الوجه الجميل بصينية صغيرة وضع عليها فنجان قهوة وإلى جانبه قطع من الحلوى الدمشقية الجافة. أعاد فؤاد اعتذاره وقال: أعتقد أنّ الوقت غير مناسب للزيارة. قالت الأم :

- عيب يا ابني البيت بيتك وهو مفتوح لك في كل يوم تأتينا متى تشاء دون ميعاد، فليس بيننا مواعيد ولا زيارات رسمية.

وسريّ عن الصبي.. ومد يده لتناول فنجان القهوة وعندما أمسك به بذل جهداً كبيراً للاحتفاظ بيد ثابتة، ذلك لأنّ ارتبائه أحدث رجفة خفيفة في أصابعه، ثم سارع إلى وضع الفنجان فوق الطاولة الصغيرة الموجودة قرب فبادرت صاحبة الوجه الجميل إلى وضع قطع الحلوى الدمشقية إلى جانب الفنجان. ثم لم تلبث الأم أن استأذنت لقضاء أمر من الأمور. وقالت له: أنت يا فؤاد في بيتك وسعاد تنوب عني في أثناء غيابي، ثم انسحبت قبل أن ينس بينت شفة مع العلم أنّه لم يكن عنده شيء يقوله وقد أنقذه انسحابها السريع من ارتبائه الذي كاد يبدو على وجهه..

وساد صمت وجده فؤاد طويلاً وقد شغل نفسه في أثنائه بأخذ رشقات من فنجانه وتناول قطعة أو قطعتين من الصحن أمامه.. صاحبة الوجه الجميل كانت تكبره بأربع أو خمس سنوات فهي في العشرين أو الواحدة والعشرين من عمرها. كل ما فيها يضح بالشباب والحيوية. وتشيع فيها أنوثة طاغية شعرها طويلاً ملقى على كتفها دون عناية ظاهرة وفتانها عادي بسيط رمادي اللون بكمّين قصيرين تبدو منهن ذراعان ممتلئتان بيضاوان ولكفيها أصابع رقيقة رشيقة ذات أطراف تبدو عليهما العناية الفائقة. ويكشف فتانها عن مساحة ضيقة في نحرها، شعر وهو يسقط عينيه عليها وكأنه يقف عند شاطئ بحر تغطيه سحابة ملونة بلون الفستان الرمادي مما كان في نظره انطلاقة لمشاهد سحرية يلجأ الخيال إلى تصورها وإحاطتها بنمنمات يد ساحرة ولمسات فن عبقرية.

وفجأة يكتشف صبينا الصغير وقاحة نظراته التي أثبتتها لثوان قليلة فوق المساحة الضيقة من نحر صاحبة العينين السوداوين ويعاوده الشعور بالحجل فيهبط بها إلى الأرض حيث يلتقي الساقين الأملودين لفتاته تنتصبان أمامه وكأهما قائمتان من رخام خالطت الحمرة الوردية بياضه وتثبت نظراته عند الساقين في الوقت الذي كانت تتعاقبه فيه صور من المتعة وألوان فريدة من اللذة تمضي كلها وكأنها لمحات عابرة، لكنها في الوقت نفسه تحدث

أثرها العميق في قلب الفتى وروحه وفي كل خلية من خلايا أعصابه تماماً كما تفعل ألسنة النار بالبشرة الصافية الرقيقة وهي تلامسها ملامسة خفيفة أشبه بلهات فتاة ناهد اشتعل قلبها بالغيرة واحترقت أعصابها بالحسرات. صبيّنا يرفع عينيه إلى صاحبة الوجه الجميل في بغتة السارق حين يفاجأ وهو في الجرم المشهود وقد بادرت به بالكلام:

- أعتقد يا شيخ فؤاد أنّ الدروس التي تتلقونها في المعهد تختلف عن تلك التي يتلقاها أبناء خالي وبناته.
- بالطبع.. بل ليست هناك علاقة بين دروسهم ودروسنا نحن أبناء المعهد، وإذا كانت هناك علاقة ما فهي علاقة واهية إنّها علاقة التسمية المشتركة في بعض الأوقات.
- وكيف تكون علاقة التسمية المشتركة في بعض الأوقات؟
- أقصد أننا في معهدنا نتلقى دروساً في العربية وأنّ أبناء خالك وبناته يتلقون دروساً في العربية أيضاً لكن الفرق بيننا وبينهم أنّ عربيتنا كلغة تشغل من المنهج العام رבעه في الوقت الذي نتعلم المواد الأخرى في الربعين التاليين بالعربية أيضاً، ثم يقسم الربع الرابع الذي ندرس فيه علوم الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي واللغة الفرنسية على أن يكون للفرنسية أقل من نصف الربع وما بقي من الربع تستخدم بالعربية في تعليم هذه العلوم منه، بينما عربية من تُشيرين إليهم لا تشغل من مناهجهم الدراسية إلا دون ما تشغله الفرنسية من مناهجنا.
- هذا يعني أنكم معزولون عن ثقافة العصر الحديث.
- إنّ طبيعة ما ندرسه من المواد تفرض علينا هذا الاتجاه.
- وهل تعترف الحكومة بشهادة معهدكم؟
- حتى الآن لم تعترف، وفي ظني أنّها لن تعترف بها أبداً.
- وكيف ستكفل مورداً للرزق في المستقبل؟
- إدارة الأوقاف هي التي تكفل لنا هذا الرزق.
- وبمضي الحوار بطيئاً فاتراً تمنى كل منهما لو تأتي الفرصة للتحرر منه. فالفتاة سعاد كانت في الحقيقة راغبة في سماع نوع آخر من الكلام، لكن الحذر يمنعها من الاندفاع نحوه إذا لم نقل خفر الأنثى.
- أما صبيّنا وقد عجز عن متابعة هذا النوع من الحوار فقد نظر إلى سعاد نظرة متددة فيها رجاء يلتمس به من صاحبتة أن تحدثه في غير هذا الموضوع.
- كان يتمنى لو يقول لها بعض ما يجده في نفسه نحوها. يتمنى لو يقول لها حبه الذي تحترق به أحشاؤه..
- ويصف إعجابه بسواد عينيها ورشاقة قوامها، وشفوف بشرتها، ويقدم إليها صورة صادقة لإعجابه بالغمازتين

عند جانبي فمها. ثم يشطح به الخيال فيقول في نفسه ليتني ألامس بشفتي شفتيها، فإذا بلغ في تصوراته وحديثه إلى نفسه هذا المبلغ شعر وكأنّ شواظاً من نار محرقة قد مس حنجرتة الملتهبة. فهزّ رأسه هزة عنيفة ونهض فجأة يستأذن بالخروج خوفاً من أن تخونه عواطفه فيصدر عنه ما لا يمكن تلافيه ويصر على الخروج وهو يتمنى لو أن سعاداً تمسك به وترغمه على البقاء متعلقة بذراعيه أو كتفيه أو رأسه. لكن القشعريرة التي شاعت في جسده كله فهزته وزلزلته دفعته دفعاً إلى الفرار بنفسه من ذلك الموقف الصعب الذي لم يسبق له أن وجد نفسه فيه قالت له سعاد:

- ومتى يسمح لك بالخروج من المعهد؟

- يوم الجمعة من كل أسبوع.

- إذا سننتظرك على طعام الغداء يوم الجمعة القادم.

فهز الصبي رأسه وهو لا يعي تماماً ماذا قال بهزته لها. وعندما وجد نفسه في الزقاق كانت القشعريرة التي عصفت به وما عقبها من الانبهار وتراكم أنفاسه يعجزه عن تنظيم أفكاره. وقد بقي على هذه الحال حتى خرج من الزقاق وأخذ طريقه نحو بيت الأسرة.

ولكي تكتمل بعض جوانب الصورة لا بدّ من أن يعرف القارئ شيئاً عمّن ورد ذكرهم من أبناء الخال وبناته الذين حدثته عنهم سعاد. فقد كان منهم من يدرس في مدرسة الأخوة المريميين وهي مدرسة كاثوليكية يشرف عليها كهنة فرنسيون. ومنهم من يدرس في مدرسة اليسيه العلمانية الفرنسية أيضاً ومنهم من يدرس في مدرسة اليسوعيين وهي أيضاً فرنسية.

وقد كان خال سعاد من كبار التجار في بيروت يقيم في بيت هو من بيوت تلك الفترة قصر من القصور مؤلف من طابقين كبيرين في كل طابق صالة كبيرة تحيط بها خمس غرف عالية السقوف فسيحة الأرجاء. أتيح يوماً لصبيّنا الصغير قبل أن يلحق بالمعهد الديني أن يشاهد ما في داخل الصالة الكبيرة للطابق الأرضي. وقد دارت عيناه دهشة لما شاهده. فقد كان فيها طقم كنبات كل واحدة منها تشغل مساحة لا تقل عن نصف مساحة الغرفة الوحيدة في بيته الخشبي. وقد بلغت دهشته أو قاربت درجة الدوار حين وقعت عينه لأول مرة على (بيانو) أسود اللون يتمدد بكامل ضخامته عند الزاوية الجنوبية الغربية من الصالة هذا بالإضافة إلى لوحين جداريتين كبيرتين متقابلتين باتجاه الشرق والغرب. أما أبواب الغرف المطلة على الصالة الكبرى فقد كانت تنسدل فوق كل منها ستارة من المخمل الأسود المطرز بخيوط ذهبية صنعت بها أشكال ورسوم من فنون العهد العثماني السابق.

هذه الفرصة كانت من ذكريات صبيّنا التي لا تنسى. فهي امتياز له من دون صبيان الحارة. وقد طالما باهى هؤلاء الصبيان بما أتيح له من رؤية إحدى الصاليتين الكبيرتين. وأطال في وصفهما بما كان يتيسر له من قدرة على التخيل والوصف. ذلك أنّ صبيان الحارة كلهم كانوا يجدون لهذا القصر في نفوسهم هيبة وجلالاً. وقد طالما سمعوا آباءهم وأمهاتهم يتحدثون عن العلاقات المريبة بين أصحاب القصر وبين رجال ونساء يترددون عليهم بدعوة منهم. فكان هؤلاء الزوار مصدرراً آخر من مصادر الهيبة والجلال والهالة التي كانت تحيط بأصحاب القصر.

وفي التاسعة من مساء ذلك اليوم الذي تمّ فيه التقاء سعاد ذات العينين السوداوين، وقد تمدد صبيّنا فوق فراشه، وشاع الظلام من حوله ولفه السكون من كل جوانبه، عادت إليه صور الوقائع التي جرت تتعاقب كل منها في عين خياله في ببطء ووضوح. وكان يتفحص كل واحدة منها على حدة ويقوم بالموقف الذي اتخذها منها. وبالرغم من انفراده بنفسه عاد إليه بعض ما كان يعصف به من القلق والخوف والندم والمتعة. فهو يلوم نفسه تارة ويسكت عنها تارة أخرى بل قد يحمدها ما فعلته. ففعلتها قد مكنته من أن يرى وجه الحبيب عن قرب وأن يستمتع بسحر العينين وأنوثة الوجه والجسد التي تنتشر طاغية مؤثرة فوق كل مكان منهما فيجد لتلك المتعة حلاوة فائقة.

وفارقه النوم وعز عليه رغم أنّ الساعة المعلقة على باب العنبر الخارجي قد دقت الثانية بعد منتصف الليل. وأحسّ بالتعب الشديد وراح يبعد الهواجس ما وسعه إبعادها. ولم يدر كم مضى عليه بعد ذلك من الوقت ليتغلب على أرقه ثم لم يلبث أن شعر بيد الشيخ الناظر العجوز تهزه هزاً رقيقاً لينهض إلى الوضوء وأداء صلاة الفجر.

فإذا أشرقت الشمس بدأت شواغل الاستعداد ليوم مدرسي جديد تحاول إبعاده عن هواجس الليل دون أن توفق إلى ذلك في كل مرة. فكان نهاره موزعاً بين عقدة الشعور بالإثم وبين شواغل الحياة اليومية لكن نهاره بصورة عامة تميز بعصبية ظاهرة بحيث لفت نظر مصطفى البدين زميله الوحيد الذي بقي قريباً منه فإذا سأله عن سبب عصبيته تهرب من الجواب بكل ما يتوفر له من وسائل التهرب.

ومضت بقية ليالي الأسبوع ونهاراته على الصورة نفسها تقريباً حتى إذا كانت عشية يوم الجمعة التالي وقد خلا إلى نفسه على عادته عند الساعة التاسعة ليلاً قرر في نفسه ألا يزور سعاداً في بيتها مهما كلفه الأمر. ذلك أنه كان قد عقد مقارنة مسائية بين الخضوع لمطالب حبه وبين الخضوع لقيمه الدينية وخرج منها بقراره هذا مؤثراً آخرته على دنياه ورضا ربه على شهوات نفسه.

وقبل طلوع شمس يوم الجمعة سارع إلى النهوض من فراشه وأداء صلاة الفجر. وبعد أن تناول فطور الصباح غادر مبنى المعهد وتوجه بخطوات متسارعة نحو بيت الأسرة فإذا بلغ أول الزقاق تسمر في مكانه ونسى كل ما عزم عليه من قبل وبعد تردد قال في نفسه: ماذا لو قررت الامتناع نهائياً عن رؤية سعاد بعد زيارة اليوم؟ فليس من اللياقة أن أمتنع عن زيارتها وقد وعدتها بتناول طعام الغداء معها ومع والدتها ووجد في هذا الرأي تبريراً للانعطاف نحو الزقاق والقيام بالزيارة الموعودة.

وهكذا تعاقبت أسابيع لا يذكر عددها تماماً وإن كانت بين ثلاثة أو أربعة على الأكثر. هو الآن مع فتاته عند غروب الشمس تلبس فستاناً أسود اللون وقد عقدت شعرها المسترسل طويلاً إلى الخلف ووضعت وردة فوق صدغها الأيمن وعصبت رأسها بعصابة حمراء غطت بها بعض جبينها العريض كما أحاطت عنقها بقلادة ذهبية زاد بها بهاء العنق الطويل وتدلى من أذنيها قرطان لطيفان ذهبيان. أما فستانها بلونه الأسود الذي كانه سواد ليلة من ليالي إلحاق غابت فيه النجوم والكواكب وراء موج من السحاب الكثيف فقد كان يضاعف وضاءة بشرتها وهي التي تخالط بياضها الشديد تلك الحمرة الوردية المعهودة. وعند زاوية من نحرها يلتقي عندها الطرفان الأعلىان لفستانها الأسود كانت سعاد قد وضعت مشبكاً ماسياً تنعكس عليه شعاعات المصباح الكهربائي الذي كان يحتفظ في نظر صبينا بسحر خاص وأخيراً كانت سعاد تتعل حذاءين مكشوفين تتشابك فوقهما سيور جلدية سوداء.

وخلاصة القول أنّ سعاداً لم تبدُ بكامل سحرها ووافر حيويتها، وتمام رشاقتها، وقوة أسرها كما بدت له في تلك الفترة التي اختلطت فيها بقايا أشعة الشمس الغاربة بأوائل موجات الظلام المنتشر.

قال الصبي:

- تعرفين يا سعاد، حرام أن تمضي الأيام دون أن يجد سحرك هذا من يعنى له على الأقل أو يشبهه في لوحة عبقرية أو يحدث به كل الناس فيذهب مثلاً شروداً لعظيم ما أبدعه الله في خلقه!
- ابتسمت سعاد ثم أردفت تقول: وما الذي يمنعك من أن تعنى له أنت أو تحدث به كل الناس كما تقول؟

- قال الصبي وهو يحاول عبثاً أن تخرج كلماته صافية طبيعية من فمه:
الذي منعني أنّ في نمنمات وجهك وجسدك التي وضعتها يد الله ما هو أروع روعة من وسوسات النجوم في الليل الدامس ومن شعاعات الشمس التي تتسلل من وراء جبل لبنان عبر الغلاف الفجري الأحمر الذي تتلفع به القمم رأيت إلى هذه الوردة التي وضعتها وفق صدغك الأيمن.. وإلى هذه العصابة

الحمراء التي عصبت بها رأسك.. وإلى المشبك الماسي الذي ينام فوق فستانك.. وإلى القرطين اللذين يتدليان من أذنك.. إلى القلادة الذهبية التي تحيط بعنقك؟ وإلى هذا الفستان الأسود الذي يلفك من كل أطرافك وإلى الحذائين المكشوفين اللذين تتعلينهما... رأيت إلى هذه كلها؟ إنني أحس وأنا أنظر إليها أنها تسرق قسطاً من سحر الأنوثة عندك وتجس بعض مواطن الجمال الذي أبدعته يد الله في كيانك كله.

ضحكت سعاد ضحكة هي أقرب إلى الابتسامة العريضة منها إلى القهقهة.. أما صبيّنا فلم يضحك بل كان يقاوم رجفة تريد أن تخرج إلى السطح أحس معها بالعجز عن متابعة الكلام والخوف من أن يتلعثم لسانه بعد الكلمات التي أطلقها متدفقة تدفق السيل وكأنه كان يطلقها بعد اختزانها لفترة طويلة واستعداده الطويل لإطلاق سراحها أمام الشخص المناسب في الوقت المناسب..

فإذا سكت الضحك عن سعاد مدت يدها إلى يد فؤاد وألحّت عليه أن يطيل زيارته بدعوة أنها أصبحت تفتقده بين الجمعة والجمعة في ستة أيام طويلة تحس فيها بثقل الوحدة والوطأة الشديدة للانتظار وأبقت سعاد يدها في يد فؤاد وقد أحاطها بيده الأخرى كما لو أنّ ما يجري هو شيء عادي جداً. وإذا كان فؤاد عاجزاً عن إدراك ما يجري في أعماق سعاد فقد كان على وعي تام بالتفجرات الصامتة التي تزلزل كيانه. وبينما هو يتظاهر بالاستماع إلى سعاد تحدّثه بما يجري به لسانها، كان هو يتساءل بينه وبين نفسه: هل صحيح أنّ هذه اليد الناعمة التي احتضنها بكلتا يديّ هي يد صاحبة الوجه الجميل بعينيها السوداوين وشعرها المسترسل فوق كتفيها؟ وهل صحيح أنني أعيش حلمي الذهبي؟ وأنّ ما أراه وألمسه وأشم ريحه هو واقعة حقيقية؟

كان يريد مزيداً من البراهين على أنّ ما يعيشه الآن هو أعظم أحلام الأمس. وتمنى لو تسمح له سعاد بتقبيل يدها الممدودة إليه. وفي حركة حاول أن يجعلها عفوية غير مقصودة شد تلك اليد قليلاً إلى صدره وارتفع بها إلى أعلى وكم كان سروره عظيماً حين استجابت اليد الرقيقة الرشيقة الأصابع لمحاولته حتى إذا بلغ بها شفثيه طبع عليها قبلة طويلة رقيقة أولاً ثم لم تلبث هذه الرقة أن أخلت مكانها لشيء هو أشبه بالعنف كما لو أنّ فؤاداً أراد أن يستبقي اليد المرفوعة إلى فمه بصورة نهائية.

قالت سعاد: يكفي يا فؤاد.. أخاف أن تتحول القبلة إلى عضة فأصابعي لا تحتمل ضغط أسنانك عليها. لكأنها بهذه العبارة شجعتة على وضع خنصرها بين شفثيه ثم بين أسنانه وقد فعل ذلك وهو يعاني من تسارع

أنفاسه ويحس أكثر فأكثر بضربات القلب الخافق تتقارب وتزداد عنفاً على نحو شعر معه بالحاجة إلى وضع يتوفر فيه قدر أكبر من الراحة في مجلسه.

والجدير بالذكر أنّ فؤاداً لم يعد يذكر الوقت الذي انقضى عليه وهو ممسك بأصبع اليد الرقيقة التي احتضنها بكفيه ورفعها إلى مستوى شفثيه شيء واحد كان يشغله.. إنّه الرغبة في التعويض عن حرمان امتد طويلاً من قبل والتأكد من أنّ حلم الماضي هو حقيقة الحاضر وواقعه.

وأخيراً وبعد وقت لا يدري فؤاد، طال أم قصر، سحبت سعاد يدها في شيء من الإصرار المتردد فاستسلم الصبي لها وهو حزين، وكان استسلامه لرغبتها في سحب يدها خوفاً من أن يسوؤها فتحرمه مستقبلاً من مثل هذه المتعة التي هبطت عليه هبوط نعمة غير مرتقبة.

ثم غادر الصبي بيت صاحبة العينين السوداوين قبيل اقتراب فترة الحضور في المعهد أي حول الساعة الثامنة والنصف ليلاً حتى إذا دخل مبنى المعهد لم يبق غير دقائق قليلة لتردد دقات الساعة التاسعة.

والجدير بالذكر أنّه كان شديد الحرص على الاحتفاظ بذكريات اللقاء الأخير. فتحاشى نظرات زملائه ولم يوجه نظرة إلى أيّ واحد منهم حتى أنّه اجتاز بالشيخ الناظر العجوز دون أن يلتفت إليه ويلقي عليه تحية المساء. وتوجه نحو سريره في عنبر الطلاب ودسّ نفسه فيه ورفع اللحاف فوق رأسه لكي لا يصرفه صارف عن شأنه.

ومضت دقائق خيل إليه معها وكأنّ جانباً من الظلمة التي تحيط به تحت اللحاف قد انفرج عن مشهد ظهرت فيه والدته وإخوته وأخواته وكلهم ينظرون إليه نظرات لا تخلو من العتاب الرقيق الذي يخالطه حزن صامت.

قال في نفسه: ما الذي أصابني؟ كيف نسيت هذه الوجوه العزيزة عليّ؟ صحيح أنني نسيتها لبعض الوقت وغيرت بعض عاداتي معها لكنني لم أسيء إليها.. لقد حاولت فقط أن أستمتع ببعض وقتي متعة بريئة؟ وكيف يكون ما فعلت عملاً بريئاً وأنا الذي استغفر الله خمساً وسبعين مرة كلما مددت نظري إلى وجه امرأة؟ هل من البراءة أن أجالس فتاة غريبة عني وهل من البراءة أن أوجه إليها كلمات غزل رقيق؟

وتنفرج الظلمة عن مشهد آخر ظهر فيه إنسان غامض القسمات خيل إليه أنّ بينه وبينه شبهاً لا يستطيع أن يحققه ويتبينه.. سمعه يقول له: لا تحزن يا فؤاد ولا تيأس ولا تبالي في لوم نفسك.. لقد كان ما فعلت لهواً بريئاً.. اذكر أنّ لمطالب حياتك حقاً عليك فلا تحرم نفسك من زينة أخرجها الله لك ولغيرك من الفتيان.

ويقول الصبي: والقبلة الطويلة التي طبعتها على يد صاحبة العينين السوداوين.. والأصبع التي عضتها.. وتلك الانفعالات العنيفة التي تفجرت في أعماقك واستيقظت بها شهوات نفسك؟ لا لا تقل إنها بريئة.. أنت تحاول أن تخفف عني حين تزعم أنّ ما فعلته هو بعض الزينة التي أخرجها الله لعباده.. لقد أغفلت حق الله عليّ.. ونسيت حق الوالدة والأخوة والأخوات.. ويعود مشهد الأسرة إليه مرة أخرى فيعتصره حزن مضاعف، وفي الوقت نفسه تنتشر في أعماقه نفحات روحية تعود به إلى حيث كان من دينه ومن ربه، فيشعر شعوراً مفاجئاً بالحاجة إلى التوبة ويستيقظ الضمير الذي كان فقد بعض سلطانه ليوجه إليه الاتهام بالأصابع العشر.. أنت مذنب إنك تسير في طريق خطرة يا فؤاد.. عد إلى ربك.

ويبدأ حوار حول ما جرى بين هذا الضمير وبين الإنسان الغامض القسّمات الذي خيل إليه قبل قليل أنّ بينه وبينه شبهاً لا يستطيع أن يحققه أو يثبته..

- لا تنسَ يا فؤاد أنّ الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن كثير.
- لا تضيقّ واسعاً على فؤاد.. حرام عليك.
- ولماذا تصر على إفساد الصبي؟
- هل أن تمتعه بحق الحياة عليه هو إفساد له؟
- بل هو جريمة.. دعه وشأنه.. فإنّ صوتك هو صوت الشيطان.. وطريقك طريق حافل بالأخطار.
- دعك من التزمّت المريض.
- ودعك أنت من دعوى التحرر المزيفة.. إنّ لفؤاد مستقبلاً يجب أن ينصرف إليه. إنّه مسؤول عن أسرة كبيرة. اغرب عن وجهه ودعه وشأنه.

وتتسارع كلمات الحوار على نحو لم يعد في وسع الصبي أن يستوعبها به فيضيق بنفسه وبهذا الحوار الذي تتداخل كلماته فيدفع اللحاف عن وجهه فإذا كل ما حوله غارق في الظلمة والصمت ويشعر بالحاجة لمن يتحدث إليه فينهض من سريره متمسكاً طريقه نحو زميله البدين مصطفى على أمل أن يجد عنده حلاً لمشكلته. فإذا بلغ سريره هزه هزاً عنيفاً فيستيقظ مصطفى ويعرفه من صوته ويساءله عما يريد منه قال:

- أريد أن أتحدث إليك.

- في مثل هذه الساعة من الليل؟

- نعم في مثل هذه الساعة.

- ما الأمر إذا خطير؟

- كل الخطورة.

- لكن أين نتحدث؟
- خارج العنبر.
- وإذا ضبطنا الشيخ الناظر؟
- هو الآن غارق في نومه.
- وخرج الصبيّان وراح فؤاد يحدث زميله بما وقع له ويقول له:
- أنا خائف يا مصطفى.
- ضاحكاً: وممّ تخاف؟
- من نتائج هذا الحب.
- دعك من هذه السخافات ولنعد إلى النوم.
- قلت لك إنّ الأمر جد خطير.. إنّ صاحبة العينين السوداوين تملأ حياتي كلها.. وتشغلني عن كل من سواها.. لقد نسيت بسببها كل شيء.. هل تعلم أنني قبلت اليوم يدها؟
- ويضحك مصطفى مرة أخرى ويقول له: وماذا يعني هذا؟ هل ارتكبت جريمة بهذه القبلة؟
- إنّك لا تفهمني يا مصطفى.. أنا الآن غريق.. وجه فتاتي لا يفارقني. إنّني أخوض معركة يائسة.
- حسن.. فماذا قررت أن تفعل؟
- فكرت بالابتعاد عنها.
- تحسن صنعاً.
- ولكنني لا أستطيع.
- حسن.. فلا تبتعد عنها إذاً.
- كيف والخطيئة تترقبي عند كل منعطف.. وفي كل وقت؟
- أنت والله غريب.
- هناك حل..
- وما هو؟
- الانتحار..
- هل أنت مجنون؟ تغسل خطيئة موهومة بجريمة حقيقية في حق الله وفي حق نفسك؟
- إنّني أخاف الفضيحة..
- وأين الفضيحة؟

- ماذا لو تحدثت الفتاة بما بيني وبينها؟
- (مصطفى يضحك مرة ثالثة) الفتاة أجدر منك بالخوف من قالة الناس.
- كلا يا مصطفى.. قلبي يحدثني بأنها سعيدة بهذا الاتصال.. وهي مستعدة لأن تصرخ بجها لي في كل مكان.. كل شيء يدل إلى رضا والدتها عمّا بيني وبينها، الخوف يقضّ عليّ مضجعي.. ولا أدري كيف أتحرر منه.
- ويتغيّر صوت فؤاد فيبدو شديد الاحتقان ويشهد مصطفى قطرات من الدمع تجري فوق خديه..
- ولو كنت مكانك ما فكرت تفكيرك.. وبالمناسبة أخبرك أنني أحب ابنة عمي وسأتزوجها.
- (ويقول فؤاد بصوت متقطع) هل قياس مع الفارق؟.
- بل إنّ ما تفكر فيه وتقوله هو الهديان بعينه. عد إلى سريرك وسنبحث الأمر نهار غد.. (الصباح رباح) ثم نهض متوجهاً إلى عنبر النوم.
- وينجر فؤاد خلفه وهو يغالب دموعه وحزنه ثم يعود إلى فراشه ويثبت عينه في الظلام من حوله ويفترسه يأس كبير جارف.

وتشرق شمس اليوم التالي على صبيّنا الذي بدا لمن حوله وكأنه في فضاء عريض أفقده وزنه.. يتحرك بين زملائه في الملعب دون أن يشاركهم في ألعابهم.. ويستمتع إلى الدروس دون أن يفقه شيئاً مما تتلقفه أذناه. وتتعاقب الأيام من بعد فتأسو جراحه شيئاً فشيئاً وينتهي به الأمر إلى ما انتهى إليه أمره مع كل مشروع من مشروعاته السابقة.. يخرج الواحد منها وليداً حافلاً بالحيوية والحرارة حتى إذا اصطدم بواقع الحياة الدنيا وواجه المتاعب الطبيعية التي تواجهه مثله تبخر وضاع تماماً كما تضيع حزمة الدخان عند أول هبة من هبات الرياح.. ويكتشف الصبي عجزه عن اتخاذ قرار يخرج منه دوامة القلق فيهرب إلى مشروع جديد يصنعه خيال غني ليجد معه مصيره السابق.

ويعاود الصبي فؤاداً إحساسه الدائم بالعجز عن تحقيق ما يحلم بتحقيقه. فإذا بأحلامه كلها أحلام يقظة.. لكن ما يلفت النظر عنده حتى ذلك الوقت ولسنوات عديدة قادمة أنه لا يكف عن تخيل الجديد والإقبال بكل حماسة على تحقيق ما يتخيله ثم الانكفاء عنه قبل أن يخرج به إلى الواقع خلقاً كاملاً..

وفي أثناء ذلك يتابع دراسته ويتنزح لنفسه مكانة عند نهاية كل عام مدرسي في الصف الأول من صفوف زملائه.